أحسن القصص
سيرة الأنبياء (عليهم السلام)



قصة آل عمران (عليهم السلام)

معجزة الخلق

كمال السيد

بلغ عمران من العمر عتياً اصبح شيخاً طاعناً في السنّ لم يرزقه الله طفلاً.

وكانت "حنّة" امرأته عقيماً لا تلد، وكانت تتمنى أن يرزقها الله ولداً.

وأوحى الله سبحانه الى عمران: اني واهب لك ولداً مباركاً!

فرح عمران وبشّر امرأته قائلاً:

أن الله استجاب دعاءنا وسيرزقنا صبيّاً مباركاً.

وفرحت المرأة الصالحة عندما شعرت بالحمل في بطنها.

وذات صباح انطلقت حنّة الى المعبد ونذرته لله، قالت:

ربّ اني نذرت لك ما في بطني محرّراً فتقبل مني انك انت السميع العليم.



النذر:

وكان زكريا النبي (عليه السلام) في المعبد فرح عندما سمع بذلك، ان الله قادر على كل شيء يرزق من يشاء.

دخل المحراب وراح يصلّي لله، ثم انطلق الى دكانه في السوق.

ومضت أيام وأسابيع وشهور، توفي عمران قبل أن يرى وجه الطفل الذي رزقه الله، وجاءت ساعة المخاض كانت حنّة تعتقد ان الله سيرزقها صبياً ذكراً مباركاً ولكنها فوجئت بان الوليد لم يكن سوى فتاة جميلة.

والآن كيف ستفي بنذرها لله، كيف يمكن للفتاة أن تخدم في المعبد؟!

قالت وهي تنظر الى السماء:

ربّ اني وضعتها انثى.. وليس الذكر كالأنثى.

الله سبحانه القى في روعها ان لهذه الفتاة شأن وانها ستلج المحراب والمعبد، قالت حنّة بخشوع!

واني سميتها مريم، واني اعيذها بك وذرّيتها من الشيطان الرجيم.

سمت المرأة الصالحة ابنتها "مريم" أي العابدة، أو خادمة المعبد.



كبرت مريم اصبحت بنتاً وآن لها أن تذهب الى المعبد لتخدم فيه.

وحدثت المشكلة من الذي سيكفل مريم؟ جميع الكهنة أرادوا كفالتها لأنها ابنة عمران الرجل الصالح وابنة حنّة المرأة التقية.

اتفق الكهنة على اجراء القرعة أيهم يكفل مريم، وخرجت القرعة على زكريا (عليه السلام).

كان زكريا رجلاً تقياً، وكان يحبّ مريم فقد توسم فيها الخير والبركة.

زكريا زوج خالتها، اصبح كافلاً لها مشرفاً على تربيتها..



البتول:

في غرفة صغيرة في أعلى البيت المقدّس عاشت مريم منقطعة عن العالم..

لا أحد يستطيع الدخول اليها أو دخول غرفتها سوى زكريا.

كبرت مريم في عزلتها، مثل قطرة الندى طاهرة، مثل شمس وراء الغيوم، مثل قمر منير.

نمت مريم مثل زهرة ندية.. مثل وردة بنفسج، يملأ عطرها الفضاء دون أن يراها أحد.

كانت مريم تمضي وقتها في المحراب تصلّي لله بخشوع وفي كل يوم كانت الحقائق تسطع في روحها، والملائكة تطوف حولها تبشرها بان الله قد اصطفاها وطهرها من الرجس، انها لؤلؤة في صدفة، لا يعلم سرّها إلاّ الله سبحانه.



رِطَبٌ في الشتاء!

في يوم شتائي قارس البرد ارتقى زكريا السلّم الطويل، ليذهب الى غرفة مريم، يحمل اليها طعاماً، كسرة خبز وقليلاً من اللبن.

سمع زكريا صوتاً مثل خرير الجداول لم يكن سوى مريم تناجي ربّها الذي اجتباها فطهرها.

دخل زكريا الغرفة بهدوء، فرأى شيئاً عجيباً.. رأى إناءً مليئاً بالرطب، كانت نكهة الرّطب تملأ فضاء الغرفة.

تعجب زكريا وقال:

من أين لك هذا؟!

قالت مريم ووجهها الملائكي يشرق بخشوع:

هومن عند الله ان الله يرزق بغير حساب.

امتلأت نفس زكريا بالإيمان وقال في نفسه:

فاكهة الصيف يرزقها الله المؤمن في قلب الشتاء!!

وتمرّ الايام ويأتي فصل الصيف، وزكريا يتفقد مريم البتول فرآها تسجد لله في محرابها ورأى إناءً مليئاً بالبرتقال امتلأت نفسه احتراماً لهذه الفتاة التي بلغت منزلة جليلة عند الله.

الله سبحانه أكرم مريم، يرزقها بغير حساب، تجد رزقها في غرفتها، لأنها انقطعت اليه، حتى لو ماتت من الجوع فأنها لن تغادر غرفتها وفاءً لنذر امّها المرأة الصالحة.



هنالك دعا زكريا ربّه:

رأى زكريا كرامة مريم عند الله وكيف يرزقها الله فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، ان الله قادر على كل شيء يرزق من يشاء بغير حساب.

ووقف زكريا الرجل الصالح العجوز يصلّي لله بخشوع قال:

ربّ هب لي من لدنك ذرّية طيبة.

فجأة غمر نور سماوي المحراب، وسمع زكريا الملاك يناديه:

ان الله يبشرك بيحيى.. لم يجعل له من قبل سميا.

وتحققت أمنية زكريا، كان يتمنى ولداً مثل مريم في طهره وصدقه وايمانه. ولكنه قال:

كيف يكون لي ولد وامرأتي عقيم، وقد أصبحت شيخاً طاعناً في السنّ.

قال الملاك:

كذلك قال ربّ هو علي هيّن.

قال زكريا:

وكيف اعرف ان الله قد رزقني يحيى؟

قال الملاك:

ان علامة ذلك أن تفقد قدرتك على الكلام ثلاث ليال.

كان المساء قد حلّ وغمر كل شيء بالظلام، وشعر زكريا بان لسانه مثل الخشبة، لا يستطيع القدرة على النطق أبداً، وسجد زكريا لله الحنّان، المنّان.

الله سبحانه رزق زكريا ولداً طاهراً سيكون له شأن، وخرج زكريا من المعبد أراد أن يعظ الناس، أن يقول لهم لا تنسوا الله.. اسجدوا لله.. اذكروا الله دائماً..

لكن لسانه لم يعد مِلكاً له.. راح زكريا يشير لهم باتجاه السماء، ان هناك يا بني اسرائيل من يراقبكم.. سبحوا الله يا قومي واذكروه.

ثلاث ليالٍ تمرّ وزكريا ما يزال عاجزاً عن الكلام، وفي اليوم الرابع قال لزوجته الصالحة اليصابات:

لقد بشرني الله بولد اسمه يحيى.

قالت المرأة الصالحة:

يحيى! يا له من اسم عجيب!! ثم كيف لي أن ألد وأنا عقيم!

قال زكريا:

ان الله قادر على كل شيء..

الله سبحانه بيده قوانين الخلق.. في قبضته السماء والأرض وهو خلق أبانا آدم من تراب.



المعجزة:

اصبح اليهود في ذلك الزمان قساة لا يؤمنون إلاّ بما يشاهدون، لجأ بعضهم الى السحر، وأصبح بعضهم يشتغل في صياغة الذهب، ولكنهم جميعاً كانوا يحبّون المال أكثر من كل شيء.

كانوا يبتعدون عن تعاليم موسى يوماً بعد آخر.

من أجل هذا أراد الله سبحانه أن يوقظهم من غفلتهم، وهب الله زكريا ولداً، حملت زوجته العقيم وانجبت صبياً، وجهه يضيء بالإيمان والمحبّة.

وأنجبت حنّة بنتاً هي مريم.

الله سبحانه كان قد وعد عمران بميلاد صبي له شأن، ولكنّه توفي ولم ير ابنته مريم.

الله سبحانه طهّر مريم ليجعل منها آية للناس، وسيجعل منها آية أخرى.



البشارة:

كانت مريم في خلوتها تتعبد، وجهها يتألق نوراً وكان قلبها الطاهر يسافر بين النجوم، يطوف في السماوات.

مثل قطرة ندى في الصباح، كانت الفتاة الطاهرة تتألق.

قلبها يضيء، وروحها شفافة، تكاد تحلّق بعيداً في عوالم مفعمة بالنور.

مريم منقطعة عن العالم ليس بينها وبين الدنيا سوى نافذة صغيرة تطلّ على الافق الازرق الذي يلامس التلال الخضراء.

فجأة امتلأت غرفتها بالنور، وفي قلب هالة النور رأت شاباً.

ذعرت مريم خافت قالت:

إنّي أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً.

قال الشاب:

لا تخافي يا مريم "انما أنا رسول ربّك لأهب لك غلاماً زكيّاً".

قالت مريم وهي تطرق حياءً:

كيف يكون لي طفل ولم اتزوّج بعد؟!

كانت مريم معجزة وها هي تصبح أمّا لمعجزة كبرى سوف تنجب وهي ما تزال عذراء!

قال الملاك:

كذلك يا مريم قال ربّك: هو عليّ هيّن، ولنجعله آية للناس ورحمة منّا، وكان أمراً مقضياً.

وتقدم الملاك من مريم لينفخ في قميصها، وشعرت مريم ان روحاً عظيمة نفّاذة تنفذ في اعماقها.

وغاب الملاك، وأدركت مريم انّها مقبلة على أيام عصيبة، انها تتحمّل مسؤولية كبرى.



انها تحمل في أحشائها روح الله وكلمته، ولكنها كانت تشعر بالقلق من يصدّق حملها المبارك، وكيف يصدّق الناس أن طفلاً يولد دون أب؟!

كان الحمل المبارك ينمو في أحشاء مريم الطاهرة، وذات صباح مشرق، انطلقت مريم الى التلال القريبة، كانت حائرة خائفة قلقة، ولكنّ ايمانها بالله يقوّي عزيمتها وإرادتها.

مريم متعبة جلست عند جذع نخلة، وشعرت بالآلام شديدة، آلام الولادة.. هتفت مريم:

يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً!

كانت مريم تفكر من يصدّق انها تنجب طفلاً دون أب!!

وسمعت مريم الجنين يخاطبها:

لا تحزني يا أمي.. الله هيّأ لك جدول ماء فاشربي منه، وهزّي جذع النخلة سوف تنثر عليك رطباً فكلي واشربي وقرّي عينا.

شعرت مريم بالهدوء يترقرق في قلبها مثل مياه الجدول، ولكنها قالت بقلق:

والناس يا بني.. ماذا أقول للناس يا روح الله؟

قولي لهم نذرت لله صوماً فلن اكلّم اليوم انساناً.



وولد عيسى المعجزة.. ولد طفل بلا اب ليكون آية للناس على قدرة الله.. ليكون رحمة للناس..

الطفل الطاهر يبتسم لأمه وضعته أمه في احضانها، ثم حملته عائدة الى قومها!

وانحدرت مريم من التلال الى المعبد، وشاهد الناس منظراً عجيباً! ان مريم تحمل طفلاً! مريم ابنة عمران تحمل طفلاً!! مريم بنت حنّة لم تتزوج بعد ولكنها تحمل طفلاً!

ماذا؟!! كيف؟ أين هي؟!

تلك مريم انها تتجه الى غرفتها في المعبد.

وانتشر الخبر المثير في كل مكان، واصبح حديثاً للجميع.

الجميع كانوا يتعجبون، والناس المؤمنون كانوا ساكتين، أما البعض فكان يثرثر بكلمات سيئة..

وسمع زكريا ما يثرثر به الناس، وسمع الكهنة بعض الشائعات من أجل هذا انطلق زكريا ومع كهنة المعبد الى مريم..



قال أني عبد اللّه!

كانت مريم تصلّي في المحراب، وعيسى في مهده مثل كوكب مضيء.. مثل برعم يتفتح للربيع.

ودخل زكريا الغرفة ودخلها رجال المعبد:

قال احدهم ومخاطباً مريم بقسوة:

لقد جئت شيئاً فريّا.

وقال آخر:
يا أخت هارون ما كان أبوك امرء سوءٍ وما كانت أمّك بغيّاً.

وقفت مريم تنظر الى قومها وقد تألق وجهها بنور سماوي لم تقل شيئاً أشارت الى الطفل.

تعجب الرجال قالوا:

كيف نكلم من كان في المهد صبياً؟!

كيف نكلم طفلاً، وهل يستطيع طفل في المهد أن يتحدّث؟!

وفي هذه اللحظة وفيما كان الرجال يحدّقون في الطفل متسائلين، حدثت المعجزة!

إن الطفل يتكلم يكشف عن حقيقة كبرى:

اني عبد اللّه!

آتاني الكتاب وجعلني نبياً..

إنّ الله ربّي وربكم فاعبدوه..

لقد جعلني الله مباركاً..

وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً..

أوصاني ببرّ والدتي ولم يجعلني جبّاراً شقياً.

والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم ابعث حيّاً.

وأمام هذا المشهد المثير.. سجد زكريا لله مصدّقاً بعيسى بن مريم، روح اللّه وكلمته القاها الى مريم!

بعض الرجال خشعوا وامتلأت قلوبهم بالإيمان، وبعض ظلّ ينظر بقسوة غير مصدّق بالمعجزة.

البيت الكريم:

وعد الله زكريا أن يرزقه ولداً، وحدثت المعجزة ولد يحيى وكانت أمه "اليصابات" عقيماً ولكن الله الذي خلق عيسى دون أب، قادر على أن يرزق المرأة العقيم طفلاً ففرح.

ولد يحيى وكان طفلاً طاهراً مؤمناً يحبّ الله، والله يحبّه كانت أُسرة زكريا أُسرة كريمة، أب صالحٌ وأمٌ مؤمنة وطفل يبرّ والديه، ويحبّ الخير للناس.

وفي ذلك المجتمع ولد عيسى وكانت ولادته معجزة وكان آية للناس على قدرة الله.

وولد يحيى بمعجزة كانت أمه عقيماً، فرزقها الله ولداً صالحاً ليكون آية للناس ورحمة.

كانا آيتين ودليلين على قدرة الله ورحمته، فماذا حصل لهما عند أصبحا شابيّن؟

هذا ما سنعرفه في الكتاب القادم.. الى اللقاء..



النهاية

معجزة الخلق

المصدر: موقع رافد